Diplomatic Relations Between the Mamluks and the Byzantine Empire (660 AH / 1261 AD - 815 AH / 1412 AD)

Dr. Ghada Hassan •

(Received 30 / 12 / 2019. Accepted 29 / 4 / 2020)

□ ABSTRACT □

This study aims to examine diplomatic relations between the Mamluks and the Byzantines; it tries to clarify the motives and reasons for establishing these relations, the means used in this, which are embassies, correspondence and treaties. The research also aims to know the political, economic and religious goals that each of them wanted to achieve through these means, and the results that resulted from those relations.

Keywords: Mamluks, Byzantium, Diplomacy, Embassies, Correspondence, Treaties

• **Assistant professor of the department of history, Faculty of Arts, University of Tishreen. boudihassan@yahoo.fr**

العلاقات الدبلوماسية بين المماليك والامبراطورية البيزنطية (660هـ-815هـ /1261م-/1412م)

د. غادة حسن•

(تاريخ الإيداع 30 / 12 / 2019. قبل للنشر في 29 / 4 / 2020)

□ ملخّص □

تهدف هذه الدراسة إلى بحث العلاقات الدبلوماسية بين المماليك والبيزنطيين، وتحاول توضيح الدوافع والأسباب لقيام هذه العلاقات، والوسائل المستخدمة في ذلك وهي السفارات والمراسلات والمعاهدات. كما يهدف البحث إلى معرفة الأهداف السياسية والاقتصادية والدينية التي أراد كل منهما تحقيقها من خلال هذه الوسائل، والنتائج التي نجمت عن تلك العلاقات.

الكلمات المفتاحية: المماليك، بيزنطة، دبلوماسية، سفارات، مراسلات، معاهدات.

*مدرسة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مقدمة

دراسة العلاقات بين الدول، سياسية كانت أم اقتصادية أم دبلوماسية، لها أهمية كبيرة في معرفة مدى استقرار الشعوب، ونظمها ومدى استثمار هذه العلاقات في الاستقرار الداخلي، ومن ذلك كان موضوع العلاقات بين سلطنة المماليك والامبراطورية البيزنطية يشكل حلقة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب التي تمت عبر التاريخ. ويمثل فترة زمنية تتميز بنهاية حروب الفرنجة في بلاد الشام على يد المماليك بسقوط آخر معاقل الفرنجة في عكا عام 691هـ/1292م، وتعد هذه الفترة من أزهى العصور في مصر وبلاد الشام إذ أن سلطنة المماليك أصبحت مرهوبة الجانب وتتمتع بزعامة عالمية للمسلمين وأصبح البلاط المملوكي يعج بالوفود والسفارات التي تقدم فروض الطاعة والولاء والصداقة.

في ظل العلاقات الإسلامية-المسيحية في العصور الوسطى التي كانت تتأرجح غالباً بين المصلحة التجارية والخلاف الإيديلوجي (الديني)، يبدو أن العلاقات التي نشأت بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية قد شملت بعض المجالات واتخذت أشكالاً عدة. كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبيزنطة موجودة دائماً؛ منذ العصور القديمة لم يتم قطع الجسور بين البلدين، وفي عصر حروب الفرنجة، استمر السفراء في التنقل بين القاهرة والقسطنطينية. ومع استعادة القسطنطينية من قبل عائلة باليولوجس عام 660هـ/1261م، والتي بقيت في أيدي الفرنجة مدة 56 عاماً، ووصول المماليك إلى السلطة في القاهرة عام 649هـ/1250م، اتخذت الاتصالات بين الدولتين وتيرة وشدة معينة. ويبدو أن المبادرة تعود إلى ميخائيل الثامن باليولوجس (660-682هـ/1261-1282م) الذي أرسل سفارة إلى القاهرة حتى قبل تنصيبه في القسطنطينية. هذا يعطي العلاقات البيزنطية المملوكية جانباً معيناً في سياق العلاقات القائمة بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

بدأت العلاقات الدبلوماسية بين سلطنة المماليك وبيزنطة في بداية حكم السلطان الظاهر بيبرس (659-676هـ/1260-1277م)، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى تعرض الدولتين لأخطار خارجية مماثلة: الغرب الأوروبي[1] والمغول[2]. في البداية، وجد المماليك والبيزنطيين أنفسهم هدفاً للتهديدات المستمرة من الغرب الأوروبي، ومن الدويلات الفرنجية في بلاد الشام. بالنسبة للغرب الأوروبي الذي يتهم البيزنطيين بأنهم "هراطقة" يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية، يجب استعادة السيطرة على القسطنطينية لاستعادة أمجاد الإمبراطورية اللاتينية فيها، ومن أجل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، ويجب القضاء على المماليك المسلمين، الذين يدنسون الأرض المقدسة، من أجل استعادة الأراضي المقدسة وإحياء المسيحية في المشرق العربي الإسلامي، خاصة أن المماليك ومنذ وصولهم للسلطة قلصوا

---

[1] تمثل هذا الخطر بآخر أباطرة الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بلدوين الثاني الذي حاول استنهاض ملوك أوروبا في صقلية وأراغون وقشتالة لاستعادة القسطنطينية من أسرة باليولوجس. للمزيد حول استيلاء الفرنجة على القسطنطينية عام 1204م واستعادتها انظر

MANSOURI, M. T., *Recherche sur les relations entre Byzance et l'Egypte (1259-1453) d'après les sources arabes*, Faculté des lettres de la Manouba, vol. 1, Tunisie, 1992, p. 98-110.

[2] ظهر المغول كقوة كبرى في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وأسسوا إمبراطورية كبيرة تمكنت من السيطرة على الكثير من الدول والمدن. انقسم المغول إلى إمبراطوريتين مختلفتين- لأسباب تتعلق بوراثة العرش-: مغول فارس وعاصمتهم تبريز، ومغول القبيلة الذهبية وعاصمتهم سراي. وكان الاثنان على عداء شديد وقامت حروب كبيرة بينهما. للمزيد انظر

AMITAI-PREISS, R., Mongols and Mamluks:The Mamlouk-Ilkhanid war 1260-1281, Cambridge Studies in Islamic Civilization, 1995, p. 10-30.

بشكل تدريجي أملاك الفرنجة في الشرق مستغلين التنافس والخلافات الداخلية في هذه الإمارات التي سعت جاهدة في وقت سابق لإثارة الغرب الأوربي من أجل إعداد حملة فرنجية والاستيلاء على مصر.

كما كان على الإمبراطورية البيزنطية مواجهة خطر آخر في أسيا الصغرى، يتمثل في مغول فارس، الذين أخذوا بالتوسع على طول الحدود البيزنطية، وبالتالي تهديد أملاكها. كما هدد مغول فارس دولة المماليك تهديداً مباشراً في بلاد الشام، وخاصة بعد معركة عين جالوت في عام 659هـ/1260م، فكان على المماليك منع المغول من التوغل في بلاد الشام حتى لا يكونوا عوناً للفرنجة في هذا. وكان هذان الخطرين (الفرنجي والمغولي) أحدهما أو كلاهما يعرض دولة المماليك في مصر والشام للزوال. كانت العلاقات الدبلوماسية ضرورية إذاً لإقامة الاتصال بين البلدين، وكانت تتطلب العديد من الوسائل الدبلوماسية: تبادل السفارات والمراسلات وتوقيع المعاهدات. وتعتمد هذه الوسائل الثلاثة على بعضها البعض، لكن السفارة هي أكثر الوسائل استخداماً ويعتمد عليها إلزاماً الشريكين الآخرين، المراسلات والمعاهدات.

أهمية البحث وأهدافه

تكمن أهمية هذا البحث في توضيح ماهية العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورية البيزنطية ودولة المماليك في مصر وبلاد الشام، وذلك من خلال تبيان الطرق والوسائل التي استخدمها البلدان في هذه العلاقات. ويهدف البحث للحديث عن السفارات المتبادلة بين الطرفين وعن السفراء والدور الذي مارسوه لإقامة الاتصال بين البلدين. كما يهدف البحث إلى تحليل محتوى الرسائل والمعاهدات الموقعة بين البلدين لمعرفة الأهداف والغايات التي رغب الطرفان في تحقيقهما، والنتائج التي تم الوصول إليها على الأصعدة كافة.

منهجية البحث

اعتمد البحث على منهجية البحث التاريخي القائم على جمع المادة العلمية من مصادر، ومراجع خاصة بموضوع البحث، ودراستها وتحليلها ونقدها، واستخراج ما يفيد أي باحث في هذا السياق، واستخلاص الأفكار المناسبة للوصول الى نتائج مقاربة للحقيقة.

أولاً–السفارات

تبادل البيزنطيون والمماليك خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري وطوال القرن الثامن الهجري/القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر الميلاديين خمس عشرة سفارة على الأقل. من بين هذه السفارات، التي أتى معظمها من بيزنطة، ست سفارات تم تبادلها في الأربعين سنة الأخيرة من القرن السابع الهجري/القرن الثاني عشر، وتسع سفارات في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وواحدة فقط في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهي السفارة التي حملت رسالة الامبراطور مانويل الثاني باليولوجس (794–829م/ 1391–1425م) إلى السلطان فرج بن برقوق[3]؛ مما يعطي القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي مكانة مهمة في العلاقات البيزنطية–المملوكية.

[3] **ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، تح. محمد عبد المؤيد خان، ج2، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدآباد، الهند، 1967–1968، ص 482، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج8، المطبعة المصرية، القاهرة، 1919،**

إن غزارة تبادل السفارات في هذا القرن يمكن تفسيره بحداثة العلاقة التي حاولت كلتا الدولتين تعزيزها، خاصة أن الوضع السياسي لمنطقة البحر المتوسط اتسم بالصراع بين الغرب الأوربي من جهة، والمماليك وبيزنطة من جهة أخرى. علاوة على ذلك كانت بيزنطة تمثل بوابة الشرق وقوتها تستند إلى دورها كتقاطع تجاري بين الشرق الأدنى وأوروبا، إضافة إلى تحكمها بالطريق البحري التجاري ومنطقة المضائق البحرية، وهي المنطقة التي حرصت الدولة المملوكية على ضمان أمن تجارة المرور فيها. فمن خلال هذا الطريق يتزود المماليك بالرقيق إلى مصر لأن الطريق البري غير آمن، نظراً لوجود الدويلات الفرنجية في بلاد الشام، والمغول وأرمينيا الصغرى في الشرق.

كانت السفارات المتبادلة بين الطرفين تتألف من أمراء وتجار[4] ورجال الدين المسيحي غالباً ما ارتبطوا بقساوسة ملكانيين[5]. إن وجود الكهنة والقساوسة الملكيين بين مبعوثي السلطان أو الإمبراطور البيزنطي يطرح العديد من الأسئلة، لماذا الكهنة الملكيين؟ هل ارتبطوا بالسياسة الخارجية لكلا البلدين؟ في البداية يمكن القول إن وجود رجال الدين المسيحي في مجال الدبلوماسية ليس بالأمر الجديد. ولم يبتكر المماليك أو البيزنطيون في هذا المجال منذ بداية الإسلام، وإقامة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، فقد عمل قادة الجماعات الدينية التي تعيش في البلدان الإسلامية كوسطاء في المفاوضات بين البلدين وهذا يمكن تفسيره بالدرجة الأولى بمعرفتهم اللغة الرومية (اليونانية) والعربية[6]. في الواقع إن الكهنة هم مترجمون معتمدون لديهم القدرة على ترجمة المراسلات أو العمل كمترجمين فوريين للسفراء. بالإضافة إلى ذلك يمكن تفسير اختيار رجال الدين الملكانيين بحقيقة أنهم ينتمون إلى الطائفة الدينية نفسها التي ينتمي إليها البيزنطيون. فالبيزنطيون والملكانيين ينتمون إلى المذهب الأرثوذكسي. بالإضافة إلى أن الصراع بين بيزنطة وروما كان يشمل مسيحي الشرق أي الذين يقيمون في البلاد الإسلامية، وكان كل طرف يحاول لفت انتباههم ليدور في فلك هذه الدولة أو تلك[7]. فاستخدمت بيزنطة علاقاتها الجيدة مع مصر والصراع الذي دار بينها وبين الغرب الأوروبي لتعزيز موقعها بين مسيحي الشرق.

بالنسبة إلى استقبال السفراء، كان يتم الإعلان عن وصولهم إلى السلطان من قبل حكام المناطق الحدودية حيث يصل السفراء[8]. يعلن الحاكم بشكل عام عن أصل السفارة وينتظر رد السلطان. رد الأخير هو الترحيب بهم جيداً، ثم إرسالهم إلى العاصمة. وحتى عندما يغيب السلطان عن العاصمة، فإن السفراء ينتظرون إلى حين عودته[9]. بينما تشير

ص 121-122. تولى السلطان فرج الحكم وعمره عشر سنوات (801-815هـ/1399-1412م)، ترافق عهدة بالكثير من المشاكل الداخلية والخارجية أخطرها كان غزو تيمورلنك لبلاد الشام عام 802هـ/1400م. المقريزي، السلوك، ج3، ص 983-985.

[4] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح. عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ص 105، ابن شداد، سيرة الملك الظاهر، تح. أحمد حطيط، فرانز ستينر فرلاج، ويسبادن، 1983، ص 78.

[5] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 40. الملكانيين أو الملكيين: طائفة من الطقس البيزنطي منتشرة في بلاد الشام، وسموا بهذا الاسم لأنهم أيدوا القرار الذي اتخذه مجمع خلقيدونية سنة 451م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية القائلة بطبيعة واحدة للمسيح؛ فلقبهم مخالفوهم ازدراء لهم بالملكيين لوقوفهم في صف الملك مرقيانوس الذي يعاضد المجمع. الموسوعة العربية الميسرة، ص 1742.

[6] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، القلقشندي، صبح، ج 8، ص 121.

[7] LAMMENS, H., « Correspondances diplomatiques entre les sultans mamlouks d'Égypte et les puissances chrétiennes », *Revue de l'Orient chrétien*, vol. 9, 1904, p. 360.

[8] HASSAN, G., Les relations ddiplomatiques entre les Mamelouks bahrides et les Etats [8] chretiens en Orient 8(milieu au XIIIe-fin du XIVe siècle), These de doctorat, Universite Paris 1- Pantheon-Sorbonne, Paris, 2010, p. 220.

[9] ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تح. قسطنطين زريق_ناجلا عز الدين، منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت، ج7، بيروت، 1936، ص 246-247.

المصادر إلى قيام الامبراطور البيزنطي باستقبال سفراء للسلطان المملوكي وهو خارج عاصمته. إذ حدث في عام 661هـ/1262م أن وصل سفراء من مصر إلى القسطنطينية، وعلموا أن الامبراطور غائباً عنها في حرب بينه وبين الفرنج، لكنه عندما سمع بوصولهم، أرسل في طلبهم، وعندما وصلوا إليه أكرمهم وأحسن استقبالهم[10]. أما بالنسبة للاستقبال نفسه، فهو بسيط مقارنة بما كان يحدث سابقاً مع العباسيين الذين فعلوا كل ما يمكن لإبهار الزائر. ومثال على ذلك الاستقبال الذي أبدته السلطة العباسية في زمن الخليفة المقتدر (282-320هـ/895-932م) للسفير البيزنطي الذي أرسله الامبراطور قسطنطين السابع (301-348هـ/ 913-959م) وذلك لإظهار قوة الخلفاء وثروة البلاد[11].

في النصوص المعروفة، في عصر المماليك، المعلومات بالنسبة إلى هذا الجانب قليلة جداً، ولكن بشكل عام كان يتم تقديم السفراء إلى السلطان بحضور جميع كبار الشخصيات في السلطنة، وفي صحبة المترجمين الفوريين، كان يتم قراءة الرسائل بحضور الجميع أيضا، ما لم تكن هناك أسرار لا يجب الإعلان عنها[12]. وعلى ما يبدو كان يتم استقبال السفراء جميعهم في حالة وجود عدة سفارات في الوقت نفسه[13]. وفيما يتعلق بهوية السفراء البيزنطيين ومكانتهم في الدولة البيزنطية، لم تقدم المصادر العربية الاسلامية معلومات كافية عنهم واكتفت بذكر أسماء بعضهم فقط، كقورش الأدرنالي وكشمانوس وتادروس وسرميش[14]، كما ذكرت اثنان آخرين اعتنقا الإسلام ودخلا في خدمة الجيش المملوكي وهما آق سنقر الرومي وأخيه بهادر[15]. وبالتأكيد هذه الأسماء يونانية ولكنها عربت.

أما بالنسبة إلى سفراء الجانب المملوكي أنفسهم، فقد وصلنا عدة أسماء للسفراء الذين قاموا بالرحلة بين القسطنطينية والقاهرة[16]. ومعظمهم ينتمون إلى طائفة الأمراء والقضاة، والسفير الأكثر شهرة هو فارس الدين آقوش المسعودي[17] الذي أرسل الى بيزنطة، ومنها إلى مغول القبيلة الذهبية[18] مرتين على الأقل[19]. لا يوجد الكثير من المعلومات حول سيرته الذاتية، سوى أن الامبراطور ميخائيل أبقى عليه في القسطنطينية لأكثر من عامين دون موافقته، وعندما عاد إلى

---

[10] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 105.

[11] الصابي، رسوم دار الخلافة، تح. ميخائيل عواد، بغداد، 1964، ص 11-14.

[12] المفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تر. وتح. بلوشيه، تاريخ سلاطين المماليك، ج 20، باريس، 1929، ص 229-252.

[13] ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 246.

[14] ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 246، المقريزي، السلوك، ج2-1، ص 177.

[15] يذكر النويري "أن السلطان الناصر محمد سر كثيراً بإسلامهما، وأغدق عليهما من النعم والعطايا الشيء الكثير". النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 33، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص 227، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد مصطفى زيادة، ج2 ق1، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1934-1958، ص 282-283، القلقشندي، صبح، ج8، ص 121، LAMMENS, Correspondances, p. 361.

[16] HASSAN, G., Les relations diplomatiques, p. 303-323.

[17] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 129، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة 650-707، تح. دونالد سيدني ريشار، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية والكتاب العربي في برلين، بيروت، 1998، ص 76، النويري، ج30، ص 58.

[18] مغول القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق هم مغول جنوب روسيا وكانت أراضيهم تضم الأقاليم الواقعة بين البحرين الأسود وقزوين على ضفاف نهر الفولغا واتخذت سراي عاصمة لهم. تحولت إلى الإسلام في عهد بركة خان عام 659هـ/1260م. وسموا بمغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي. للمزيد انظر HASSAN, G., Les relations diplomatiques, p. 105-110.

[19] السفارة الأولى عام 660هـ/1261م، والثانية عام672هـ/1273م. انظر ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر ص 129، ابن شداد، تاريخ، ص 78، المقريزي، السلوك، ج1 ق2، ص 471.

القاهرة، أنبه السلطان بيبرس وسجنه لأنه لم يتصرف وفقاً للبروتوكول وقام بالتصرف وحده دون استشارة السلطان في العلاقة المتأزمة بين بيزنطة ومغول القبيلة الذهبية. وتروي المصادر العربية أن انسحاب قوات مغول القبيلة الذهبية من أراضي الإمبراطورية البيزنطية كان بفضل تدخل السفير فارس الدين آقوش لصالح بيزنطة، إذ ذهب إلى مقدم الجيش المغولي وأخبره بأن بيزنطة في عهد الملك الظاهر وصلحه، فطلب منه مقدم الجيش أن يكتب له مرسوماً بذلك، فكتب له مؤكداً إنه يقيم في القسطنطينية باختياره، وأن الامبراطور لم يمنعه من الذهاب إلى بركة، وأن بيزنطة صديقة مصر، وهو موقف لا يتوافق مع الواقع[20].

على الرغم من أهمية المهمات التي كان يؤديها هؤلاء السفراء من وقت لأخر، إلا إنهم أهملوا من قبل المصادر التي ذكرت سفاراتهم دون إعطاء معلومات حول أصلهم أو وظائفهم ومراحل حياتهم المهنية. واكتفى المؤرخون بالقول إن هذا السفير هو أمير أو قاضي أو تاجر، أو راهب. ولكن يبدو أيضاً ان السفراء غالباً ما يقودهم زعيم الوفد الذي يحق له التحدث باسم السلطان، وهو الذي يسميه ويذكره المؤرخون باعتباره المبعوث السلطاني. وغالباً ما يرافق السفراء المماليك قساوسة ملكيين لتسهيل مهمته فهؤلاء يعرفون اللغة اليونانية وتقاليد البلاد، مما يمكنهم من تجنب السلوك "غير المرغوب فيه" في أعين المضيفين[21]. لجأت الإمبراطورية البيزنطية نفسها إلى هذا الإجراء وقامت بإرسال كهنة ملكيين مع سفرائها، وللأغراض نفسها، ربما هؤلاء الكهنة كانوا في مصر ثم غادروا إلى القسطنطينية، أو كهنة جدد سيتولون وظائفهم في مصر[22].

بشكل عام، قام هؤلاء السفراء برحلات مكوكية بين البلدين مرة واحدة على الأقل، باستثناء الأمير فارس الدين آقوش الذي قام بالرحلة بين البلدين أكثر من مرة كما ذكرنا سابقاً. هذا لا يعني أن السفراء الآخرين لم يقوموا بالرحلة عدة مرات، لكن قلة المعلومات حول هوية السفراء تجعل من الممكن القول بمثل هذا الافتراض. كان هؤلاء السفراء مسؤولين عن الرسائل المكتوبة أو الرسائل الشفوية المتعلقة بالعلاقات بين البلدين، كما إنهم ينقلون المعلومات أو الهدايا لإحدى العاصمتين، كل ذلك لتعزيز العلاقة أو للحصول على خدمة، والرسائل التي وصلت تعبر عن نوع الخدمة المطلوبة من كلا الجانبين.

ثانياً-المراسلات الدبلوماسية

من المؤكد أن المراسلات بين الإمبراطورية البيزنطية وسلطنة المماليك تعتمد على عدد من السفارات المتبادلة. ويعد هذا النوع من الوسائل الدبلوماسية محدود للغاية في النصوص العربية واليونانية. تشير المصادر إلى وجود نصوص رسالتين فقط، واحدة نقلت من خلال المصادر اليونانية[23]، أرسلها الناصر حسن[24] إلى الإمبراطور حنا السادس

[20] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 202-203.

[21] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 40، 53.

[22] من هؤلاء الراهب رشيد الكحال أرسله بيبرس في سفارة إلى بيزنطة عام 660هـ/1261م، الراهب كرنانوس جاء من بيزنطة إلى مصر في سفارة عام 667هـ/1268م، بطريرك الملكانية اثناسياس سلار أرسله بيبرس إلى ميخائيل الثامن عام 679هـ/1280م. ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 179، المقريزي، السلوك، ج1 ق2، ص 470-471، 538.

[23] نص هذه الرسالة باللغة العربية مفقود لكن ترجمتها باللغة اليونانية القديمة موجودة، وقد قام المؤرخ الفرنسي ماريوس كنار بترجمتها إلى اللغة الفرنسية. للمزيد انظر

CANARD, M., « Une lettre du Sultan Malik Nâsir Hasan à Jean VI Cantacuzène (750/1349) », *Extrait des Annales de l'Institut des études orientales d'Alger*, vol. 3, Larose, Paris, 1937, p. 27-52.

كنتاكوزن (1347–1354م)، والثانية أرسلها الامبراطور مانويل الثاني باليولوجس إلى السلطان فرج بن برقوق، ونقلتها المصادر العربية كما ذكر سابقاً.

الملاحظة الأولى حول هاتين الرسالتين إن ما تم إرساله من قبل السلطان إلى الإمبراطور لم يتم ذكره في المصادر العربية المعاصرة، أما ما أرسله الإمبراطور إلى سلطان مصر فقد تم الحديث عنه في مصدر عربي وهو كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي[25]. هذا يدل على أنه في كلا البلدين، قد لا يحتفظ بنسخ مما نرسله، بالمقابل نحن نحتفظ بما يتم تلقيه من الخارج في الأرشيف الذي فقد معظمه فيما بعد[26]. ولكن هذا العدد المحدود للغاية من الرسائل لا ينفي أن المراسلات المكتوبة كانت أكثر وفرة ولكنها غير مذكورة.

من المؤكد إن السفارات لتي تم ذكرها غالباً في مهمة شفهية كانت تحمل رسائل مكتوبة لم يعرفها أو لم يطلع عليها المؤرخون. وبما أن هؤلاء كانوا، من خلال وظائفهم في ديوان الإنشاء[27]، على غرار خزّان (مفردها خازن وهو المسؤول عن حفظ الرسائل)، فقد أهملوا أو تجاهلوا نقل ما وصل إلى السلاطين إلى الأجيال القادمة[28]. وهذه ليست ظاهرة خاصة بالعلاقات البيزنطية –المملوكية، بل نجد هذا الظاهرة أثناء دراسة المراسلات مع مختلف البلدان، حيث تم الحديث عن وصول بريد ولكن لم يتم عرض المحتوى ولم يتم نسخ النص[29].

أما بالنسبة للمراسلتين المذكورتين، على الرغم من الفارق الزمني بينهما، إلا أنهما متشابهتان في محتواهما. يستذكر الملكان علاقات الأجداد الجيدة[30]، ويحاول كل منهما منح هذه العلاقة شرعية تاريخية، والتي تمثل وتيرة تبادل السفارات المحتفظ بها منذ فترة طويلة[31].

الرسالة التي بعث بها السلطان حسن إلى حنا السادس كونتاكوزن هي استجابة لرسالة منه، ويبدو أنها تحتوي على عدد من المطالب. النص الأصلي لهذه الرسالة غير موجود، لكن رسالة السلطان تعطي فكرة عنها، عندما قام بالإجابة على مطالب الإمبراطور. تتعلق معظم هذه المطالب بالحياة الدينية للمسيحين الذين يعيشون في مدينة القدس الخاضعة لإدارة المماليك، واستناداً إلى جواب السلطان، يبدو أن الامبراطور قد أدرج الكنائس ضمن مطالبه فأمر السلطان بأن "**تتم رعاية الكنائس التي ذكرتموها والاهتمام بها**"[32]. لقد كان المسيحيون ومبانيهم (الكنائس والأديرة) موضع اهتمام كبير من الأباطرة البيزنطيين، خاصة المسيحيين الملكانيين (الروم)، لأنهم أرثوذكس كالبيزنطيين، هذا الاهتمام يبدو طبيعياً لأن المسلمون غالباً ما خلطوا بين الطوائف المسيحية الموجودة في مصر. تدخل الامبراطور بالفعل في هذا المستوى وطلب ترميم كنيسة ماري جرجس القديمة الواقعة في حارة الروم في القاهرة، والسماح للسفير البيزنطي بالذهاب إلى كنيسة القيامة المقدسة للحج مع بقية الرسل الذين بصحبته، وإصدار مرسوم لحماية ليس فقط المسيحيين المقيمين في بيت المقدس، بل أيضاً المسيحيين الغرباء القادمين إلى المدينة المقدسة لأداء فريضة الحج. أمر السلطان "**بإصدار**

---

[24] حكم الناصر حسن فترتين: الأولى بين عامي 748–752هـ/1348–1351م، والثانية بين عامي 755–762هـ/1354–1361م.

[25] القلقشندي، صبح، ج8، ص 121–122.

[26] القلقشندي، صبح، ج8، ص 121–122، LAMMENSE, Correspondance, p. 360–362.

[27] MANSOURI, M. T., Recherche sur les relations, p. 121.

[28] ابن حجر العسقلاني، إنباء، ج2، ص 482.

[29] المقريزي، السلوك، ج1 ق1، ص513 و ج2 ق1، ص 132،48.

[30] القلقشندي، صبح، ج 8، ص 121، CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p 47.

[31] القلقشندي، صبح، ج8، ص 122.

[32] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 49.

مرسوم بخصوص هذه الرغبات الخاصة بالمكان المقدس"[33]. علاوة على ذلك ذهب السلطان إلى أبعد من ذلك في تأكيد العلاقات الودية مع البيزنطيين، وأمر بالإفراج عن جميع الأسرى من أصل بيزنطي دون الامتثال للعادة القديمة في تبادل الأسرى[34].

ويبدو أن العلاقات بين البلدين كانت جيدة جداً في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. كتب السلطان جواباً على رسالة الإمبراطور أعرب فيه عن استعداده لتلبية المطالب الموجهة إليه بمناسبة قدوم السفارة وتلك التي يمكن أن يطلبها الامبراطور لاحقا[35]. بالإضافة إلى ذلك، أمر السلطان بإعادة البطريرك لازار إلى وظيفته كبطريرك لمدينة بيت المقدس والذي كان قد عزل عنها من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون في وقت سابق[36]. وسافر هذا البطريرك بالفعل مع السفير البيزنطي إلى القدس[37].

لا تقتصر هذه الرسالة على الجانب الديني، إذ تحتوي على معلومات حول العلاقات التجارية بين البلدين. طلب الإمبراطور من السلطان أن يكون التجار البيزنطيين القادمين آمنين، وأمر السلطان " **أن يستقبل جميع التجار، ويحموا كما طلب الرسول**"[38]. هل هذا يثبت أن التجار البيزنطيين يتاجرون مع مصر؟ أو أن تجارتهم معها مرتبطة بالأمن الذي كان يجب ضمانه لهم من قبل السلطنة المملوكية؟ كان جواب السلطان رسمياً، وأعطى الأمر باستقبال هؤلاء التجار وحمايتهم، وهذا يدل على أن سلطنة المماليك حريصة على وصول التجار من جميع الجنسيات إلى أراضي الدولة المملوكية، مما يتيح لها الحصول على ما تحتاجه.

بالنسبة إلى الرسالة الثانية، أرسلها الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقد ترجمت من قبل بطريرك الملكيين[39] في القاهرة. على الرغم من محتواها، الذي لا يختلف كثيراً عن محتوى الرسالة التي أجاب عليها السلطان الناصر حسن، فقد تم إرسالها في سياق مختلف تماماً. ففي بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لم تعد بيزنطة إمبراطورية بنفس الأهمية التي كانت عليها في القرن السابق، وهي محصورة في القسطنطينية ومحيطها، وبعض الجزر في بحر إيجة[40]. كما لم يعد لمصر ذاتها اهتمامات الماضي نفسها، ويبدو أنها أصبحت هامشية في السياسة الدولية في ذلك الوقت. لقد أدى صعود الأتراك العثمانيين إلى صرف انتباه الغرب الأوربي عن مصر بالإضافة إلى اختفاء المغول خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع

---

[33] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 50.

[34] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 51. . كان العباسيون لا يتبادلون الأسرى ولا يدفعون الفدية إلا بعد القيام بفحص للأسرى المسلمين، الذين يعرفون القرآن الكريم يفدون، والذين لا يعرفون يتركون في أيدي البيزنطيين. للمزيد انظر IZEDDIN, M., Un prisonnier arabe a Byzance au IXe siècle: Harun bin Yagba p. 53.", REI, 1947,

[35] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 51.

[36] تذكر المصادر البيزنطية أنه بعد انتخاب البطريرك لازار من قبل الأساقفة على بيت المقدس، غادر إلى القسطنطينية ليصادق الامبراطور اندرونيك الثالث على انتخابه. ذهب أحد الأساقفة إلى القسطنطينية في الوقت نفسه واشتكى من لازار ووجه إليه اتهامات، كان لا بد معها من عزله من منصبه لكن الامبراطور تريث، وطلب من لازار البقاء بالقسطنطينية حتى يتحقق الأمر. وكانت النتيجة أن توفي أندرونيك الثالث وقامت حرب على وراثة العرش انتهت بتعيين حنا الخامس الذي عزل لازار من منصبه كبطريرك لبيت المقدس لأنه وقف إلى جانب خصمه كونتاكوزن. للمزيد انظر .MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 129-130

[37] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 50.

[38] CANARD, Une letter du sultan Nasir Hasan, p. 51.

[39] القلقشندي، صبح، ج8، ص 121، .LAMMENS, Correspondances, p. 360

[40] NICOL, D.M., The last centuries of Byzantium:1261-1453, Hart-Davis, London, 1972, p. 210.

عشر الميلادي، وهذا أدى إلى فقدان سلطنة المماليك أهميتها السابقة. ومع ذلك، فإن الدولتين تثمنان هذه العلاقة التقليدية بينهما من خلال هذه الرسالة؛ فيشير الامبراطور إلى الصداقة القديمة التي ربطت بين الأسلاف وإن هذه الصداقة نمت باطراد بينه وبين السلطان[41]. والدليل على ذلك هو التبادل الدائم للهدايا بين البلدين في العصور المختلفة، لدرجة أن الأباطرة البيزنطيين كان لديهم فكرة عن أذواق سلاطين مصر، فيذكر الإمبراطور إن السلطان يحب طيور الكواهي (الصقور)، ولهذا أرسل له "**خمسة من الكواهي وبازدار (طيور الباز)**"[42]. لكن لم تكن هذه المرة الأولى التي يرسل فيها إمبراطور بيزنطي الصقور إلى السلطان، ففي عام 217هـ/1313م أرسل الامبراطور أندرونيك الثاني هدية إلى السلطان محمد بن قلاوون تحتوي على "**أربعين حملاً من الجوخ والأطلس (الحرير) وسناقر وبرطاسي (طيور الباز)**"[43].

بالنسبة لموضوع الرسالة، يمكن القول إنها ذات طابع ديني في الواقع. المسيحيون الذين يعيشون في مصر، أي رعايا الدولة لمملوكية، هم موضوع هذا الالتماس المقدم إلى السلطان. فالإمبراطور البيزنطي على دراية كاملة بأوضاعهم من خلال البطاركة المصريين الذين أرسلوا للإمبراطور معلومة تفيد بأن السلطان أصدر لتوه مرسوماً لصالح المسيحيين[44]. علاوة على ذلك، يبدو أن هذه الرسالة كان مقدراً لها أن ترسل قبل فترة طويلة لكن الوضع الداخلي للإمبراطورية لم يسمح له بإرسالها سابقاً. الامبراطور نفسه يقول في رسالته " **وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا.....أوجب تأخير ذلك**"[45]. كان وضع الإمبراطور البيزنطي منذ ذلك الحين، أي في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بالغ الخطورة. يطوق العثمانيون عاصمته[46]، ويتردد الغرب الأوربي في المجيء لمساعدته خاصة بعد ما حدث في معركة نيكوبوليس في عام 799هـ/1396م[47]. إن لهجة الرسالة معبرة، فعلى الرغم من أن اسم "امبراطورية" مازال يثير القوة والسلطة، إلا إن بيزنطة كانت بدأت بالتدهور الذي أدى إلى سقوطها لاحقاً.

من ناحية أخرى، يبدو أن الامبراطور كان على دراية حتى بمشاكل السلطان داخل السلطنة "**وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تخت مملكته، ولم نعرف إلى أي مكان توجه، أوجب تأخير ذلك**"[48]. في هذا العام كان السلطان في بلاد الشام لاسترضاء تمرد قام به الامراء المماليك في هذه

---

[41] القلقشندي، صبح، ج8، ص 121، . LAMMENS, Correspondances, p. 361

[42] القلقشندي، صبح، ج8، ص 122،. LAMMENS, Correspondances, p. 361

[43] المفضل، النهج السديد، ج20، ص 229، المقريزي، السلوك، ج2 ق1، ص 120.

[44] القلقشندي، صبح، ج8، ص 121.

[45] القلقشندي، صبح، ج8، ص 122، . LAMMENS, Correspondances, p. 361

[46] في عام 796هـ/1394 قرر السلطان بايزيد الثاني مهاجمة القسطنطينية، وفرض حصاراً عليها، وأرسل جيشاً ضخماً وقام ببناء العديد من التحصينات واستولى على بعض المدن الواقعة على ساحل البحر الأسود، وقد أراد من ذلك قطع الإمدادات عن القسطنطينية، كما فرض عليها حصاراً بحرياً. للمزيد انظر . MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 200

[47] عند حصار القسطنطينية، أرسل الإمبراطور مانويل الثاني إلى البابوية وملوك الغرب الأوربي يستنجد بهم قبل سقوط عاصمته، وبالفعل تشكل حلف عرف بالحلف الفرنجي الأوروبي وحينما علم بايزيد بذلك رفع الحصار عن القسطنطينية وتقدم بقواته إلى الدانوب، وألحق هزيمة قاسية بهذا الحلف في معركة نيكوبوليس. للمزيد انظر

ATIYA, A. S.,The Crusade of Nicopolis, London, 1934, p. 149-151.

[48] القلقشندي، صبح، ج8، ص 122. . LAMMENS, Correspondances, p. 361

المنطقة، وهو ما يفسر أيضاً المصطلح الذي استخدمه مانويل الثاني "**المشاكل التي أعقبت دولنا**"[49]. كان وضع مصر صعباً كوضع بيزنطة في ذلك الوقت، ويشعر الملوك بالتضامن في الأوقات الصعبة. ويبدو أن هذه الرسالة لم تصل إلى السلطان الذي لم يعد إلى القاهرة، فقد اغتيل في دمشق، وبقيت الرسالة في أرشيف القاهرة[50].

ضاعفت الدبلوماسية البيزنطية نشاطها من أجل الحصول على تأييد الحكومة المملوكية، في تأكيد سيطرتها التقليدية على المسيحيين الذين يعيشون في مصر. تتابعت المراسلات والسفارات بعضها البعض في بلاط السلاطين، والغرض الوحيد الذي يتكرر دائماً هو لفت انتباه السلاطين لوضع المسيحيين، وهذا يمنح بيزنطة دور المدافع عن قضية المسيحية في أرض الإسلام. والشيء الملفت في ذلك إنه على الرغم من الوضع المتدهور لبيزنطة، فإنها استغلت علاقاتها الجيدة مع المماليك لتحسين أوضاع المسيحيين. المماليك من جانبهم، ورغم معرفتهم بأوضاع بيزنطة استمروا في تحقيق رغبات اباطرتها في هذا الصدد.

الجهود الدبلوماسية لبيزنطة هي جزء من سياستها للحصول على تأييد المسيحين في الشرق. بيزنطة تطالب بمعاملة أفضل لهم، لكنها لا تطلب المساعدة من المماليك ضد الغرب الأوروبي أو ضد الأتراك العثمانيين. فهل كان هذا نتيجة خوفها من الاتراك العثمانيين؟ من المعروف أن البيزنطيون انضموا إلى الحلف الأوروبي في نيكوبوليس فقط لإبعاد الضغط العثماني عن العاصمة القسطنطينية، وكان ذلك بعد تردد كبير. ومع ذلك، بعد الهزيمة، اتهمت بيزنطة من قبل الغرب الأوروبي بأنها تتخابر مع العثمانيين[51]. خلاصة القول إن التبادل الدبلوماسي المملوكي-البيزنطي لم يتوقف أبداً، ووصل إلى ذروته في الربع الأخير من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فقد تم تهديد الدولتين في وجودهما من الأعداء أنفسهم تقريباً. لذلك دعوا إلى تشديد روابطهم لإعطاء الأعداء مظهر القوة والصلابة وحتى التحالف، خاصة بعد التوقيع على معاهدة عام 680هـ/1281م.

ثالثاً-المعاهدات

المعاهدة الوحيدة المعروفة حتى الآن بين المماليك وبيزنطة هي معاهدة عام 680هـ/1281م[52]؛ فالمصادر لا تتحدث عن أية معاهدة بعدها هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، وقعت بيزنطة ومصر معاهدة قبل عام680هـ/1281م[53]. لكن هذه المعاهدة كانت باللغة اليونانية ولم تترجم إلى اللغة العربية، والدليل على ذلك حين قام السلطان بيبرس بعقد اجتماع لرجال الدين المسيحي (البطاركة والفيلسوف اليوناني) طلب فيه منهم إعادة قراءة المعاهدة، عندما احتاج إلى استخدامها ضد الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس، الذي أعاق سفراء السلطان المرسلين إلى خان القبيلة الذهبية. كانت المعلومات قد وصلت إلى السلطان في شهر رمضان 662هـ/حزيران 1264م، فأخرج نسخة اليمين التي حلف عليها الامبراطور وكانت مكتوبة باللغة الرومية (اليونانية)[54]. لم يتم ذكر هذه الرسالة في النصوص العربية، ولكن ذكرت

---

[49] **القلقشندي، صبح، ج8، ص 122. .LAMMENS, Correspondances, p. 361**

[50] **LAMMENS, Correspondances, p. 361. .**

[51] **ATIYA,The Crusade, p. 149-150.**

[52] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح. مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961، ص 204-209، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 229-233، القلقشندي، صبح، ج14، ص 71-78.**

[53] **ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 202. انظر أيضاً**

CANARD, M., "Un traite entre Byzance et l Egypte", Melanges Gaudefory-Demombynes, Le Caire, 1937, p. 11-12.

[54] **ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 105.**

بالنصوص اليونانية[55]. ويبدو أن هذه المعاهدة هي الأولى في تنظيم العلاقات بين بيزنطة والمماليك، كما يبدو أن هذه المعاهدة قد ألغيت في عام 662هـ/1264م لخرقها من قبل الامبراطور ميخائيل، ومن هنا كانت الضرورة تقتضي توقيع معاهدة أخرى، وقد تم ذلك في عام 680هـ/1281م في عهد السلطان قلاوون (678-689هـ/1279-1290)[56]. شكلت هذه المعاهدة الأساس الذي قامت عليه العلاقات البيزنطية –المملوكية في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وكانت دون شك نتيجة مفاوضات عديدة واتصالات دبلوماسية بين بيزنطة ومصر. وهي تحتوي على بعض البنود التي تلبي متطلبات وضرورات السياسة الدولية في ذلك الوقت والتي تعبر عن الاحتياجات والمخاوف من الدولتين الموقعتين في الوقت نفسه.

وفقاً للمعاهدة، طلب قلاوون صداقة ميخائيل الثامن، الذي قبل هذا الطلب شريطة أن يكون هناك اتفاق بينهما[57]، ويبدو أن سفارتين قامتا بالرحلة إلى القسطنطينية لنقل نسخة المعاهدة إلى الإمبراطور البيزنطي، الأولى كانت مسؤولة عن إحالة نسخة من المعاهدة التي صدق عليها السلطان قلاوون للإمبراطور، هذه السفارة لن يستقبلها ميخائيل الثامن لأنه كان قد توفي، ولكن استقبلت من قبل ابنه وخليفته اندرونيك الثاني (682-728هـ/1282-1328)[58]. غادرت سفارة ثانية القاهرة متوجهة إلى القسطنطينية مع هدية قيمة للإمبراطور، بمناسبة توقيع المعاهدة، وربما أيضاً لتقديم تعازي السلطان وتهانيه للإمبراطور اندرونيك الثاني[59]. يمكن القول، في ضوء النصوص المقتبسة، أن هذه المعاهدة قد أعدها لفترة طويلة السلطان بيبرس وميخائيل الثامن، وبمجرد وفاة بيبرس، فإن السلطان قلاوون هو من تولى المسؤولية، لكن التوقيع على المعاهدة بشكل نهائي والتصديق عليها لم يكن مع ميخائيل، بل كانت بين قلاوون وأندرونيك الثاني[60].

في هذه المعاهدة أكد الحاكمان على الولاء والمحبة والصداقة التي ستستمر بين الطرفين لمدة طويلة[61]. بالإضافة إلى ذلك، اتفق البيزنطيون والمماليك على عدم إعلان الحرب، أو تحريض القوى الأخرى لفتح عداوات ضد الآخر. ومن هنا نشأ نزاع بسيط بين الحاكمين، لأن السلطان قلاوون لم يقتصر على إعلان سلام متبادل لكنه أضاف "**لا يحرك ملكه (أي الامبراطور) على عز سلطاني حرباً قط، ولا على بلادي، ولا قلاعي...ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطاني في البر ولا في البحر، ولا يساعد أحداً من أضداد عز سلطاني، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس، ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شيء فيها بجهده وطاقته.**"[62].

---

[55] **CANARD, Un traite, p. 11.**

[56] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 204.**

[57] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 204.**

[58] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 54.**

[59] **بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 239.**

[60] **CANARD, Un traite, p. 199 .**

[61] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 207، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 232، القلقشندي، صبح، ج14، ص 76، CANARD, « Le traité de 1281 entre Michel VIII Paléologue et le sultan Qalawun », *Byzantion,* vol. 10, 1935, p. 678.**

[62] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 207، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، 232، القلقشندي، صبح، ج14، ص 76-77، CANARD, Un traite, p.202, CANARD, Le traite de 1281, p. 678-679.**

هذا الطلب يظهر جيداً خشية السلطة المملوكية تجاه الفرنجة، ولكن أيضاً تجاه خصومه في الداخل، فالسلطان قلاوون قام سابقاً بعزل أولاد سلفه بيبرس ونفيهم إلى بيزنطة نفسها[63]. وبموجب هذا البند، هل يريد السلطان تجنب التدخل من جانب الإمبراطور في الشؤون الداخلية للسلطنة؟ لكنه يخشى أيضاً التعاون بين بيزنطة والفرنجة أو المغول، خصوصاً أن البيزنطيين في الماضي سمحوا للفرنجة بالهجوم على المناطق الإسلامية التي تقع على تخوم دولتهم. كما أنهم منعوا سفراء مماليك من الوصول إلى القبيلة الذهبية وذلك على الرغم من ارتباطهم بمعاهدة مع مصر[64]. ومن هنا كان الإصرار على تحديد طبيعة العلاقات التي يجب أن توجد بين البلدين. بالنسبة لسلطنة المماليك، يجب ألا تبقى بيزنطة محايدة فقط في النزاعات التي يواجهها المماليك ولكن أيضاً يجب استخدام "قوتها وأدواتها" إلى جانب مصر[65]. لقد حدث أن قطع الامبراطور عهداً في عام 660هـ/1261م من خلال رسالته إلى السلطان بيبرس " **إنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتي عليه**"[66]، بمعنى آخر، يجب أن تكون بيزنطة الحليف القوي لسلاطين المماليك، لذلك لا ينبغي لها أن تسمح للفرنجة الأعداء بالمرور عبر أراضيها كما حدث في الماضي زمن حروب الفرنجة الأولى.

بالنسبة لحرية المرور وسلامة السفراء والتجار، التي أعلنها الامبراطور البيزنطي بشكل عام، فقد حددها السلطان قلاوون، من ناحية الوجهة وطريقة المرور وطبيعة نشاط السفراء[67]. هؤلاء السفراء الذين أرسلوا إلى بلاد القبيلة الذهبية وبلاد سوداق[68]، عن طريق البحر أو البر، وهذا يتوقف على مصلحة السلطان وفقاً لظروف الفترة أو الوقت. أما بالنسبة لطبيعة مهامهم، فمن الواضح أنها تجارية، لأن الامبراطور لا ينبغي أن يحجزهم أو يمنعهم من المرور مع العبيد الذين يصحبوهم، سواءً كانوا نساءً أو رجالاً. أما بالنسبة للإمبراطور، فمن المستحيل السماح بمرور المسيحيين المستعبدين[69]. من ناحية أخرى، لا يتم الاحتفاظ بالسفراء المتوجهين إلى سلطنة المماليك عندما يكونون برفقة سفراء القبيلة الذهبية، أو بمفردهم[70]. وقد منح هذا الامر المماليك ضمانة أن تكون قادرة على الاستفادة من التوريد المستمر للعبيد، والحفاظ على علاقة دائمة مع القبيلة الذهبية، وبما إن موقع بيزنطة يشكل صلة الوصل بين الدولة المملوكية والقبيلة الذهبية، فقد صممت المعاهدة لتقليل العوائق بين الطرفين. كما إن هذا الموقع أيضاً يشكل خطراً على مصر

---

[63] ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 22،37، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 200.

[64] MAMSOURI, Recherches sur les relations, p. 128.

[65] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 206-207، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 231، القلقشندي، صبح، ج14، ص 72، 77-78

CANARD, Un traite, p.202, CANARD, Le traite de 1281, p. 677.

[66] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، 88.

[67] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 205، 209، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 229-233، القلقشندي، صبح، ج14، ص 72، 77-78، 679-680 .CANARD, Un traite, p. 200, 202, CANARD, Le traite de 1281, p

[68] بلاد سوداق وهي من مدن مغول القفجاق. تقع على الساحل الجنوبي الغربي للقرم على ساحل البحر الأسود.

CANARD, Un traite, p. 201, note. 1.

[69] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 205، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 230، القلقشندي، صبح، ج14، ص 74، CANARD, Un traite, p. 201, CANARD, Le traite de 1281, p. 674.

[70] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 205، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 230، القلقشندي، صبح، ج14، ص 74، CANARD, Un traite, p.201, CANARD, Le traite de 1281, p. 674.

بسبب موقعها على المسار الذي أدى في الماضي إلى دخول الفرنجة إلى البلدان الإسلامية، فتم تصميم هذه المعاهدة لتحييد مثل هذا المشروع في حالة حدوثه.

أما بالنسبة للجانب البيزنطي، فتم تسليط الضوء على الجانب الديني، وتم صياغة ثلاث أمور متعلقة بالمسيحيين المستعبدين الذين هم تحت يد السلطة المملوكية. رفض الامبراطور السماح للمسيحين المستعبدين بالذهاب إلى مصر، لأن الدين يحرم ذلك. وطلب، عن طريق المعاهدة، السماح للمسيحين العبيد المحررين بالوصول إلى بيزنطة "**عن طريق البحر**"، وإذا أراد تجار الدولة المملوكية بيع العبيد المسيحيين للسفراء أو التجار أو أهل بيزنطة، فيمكنهم فعل ذلك وإن المشترين يمكنهم إحضارهم "**عن طريق البحر**" دون أية عوائق على الإطلاق إلى بيزنطة[71]. مثل هذه المطالب من قبل بيزنطة تبدو مفهومة بسبب صراعها مع البابوية، وأيضا بسبب رغبة بيزنطة في وضع أو تأكيد سلطتها على الطوائف المسيحية المقيمة في مصر. علاوة على ذلك، يبدو أن الامبراطور كان على دراية تامة بألية عمل النظام المملوكي التي يقوم على عتق العبيد وتحريرهم من العبودية. عندما يحصل هؤلاء العبيد على إقطاعات، هذا يعني أنهم قد تعلموا في المدارس العسكرية، وبالإضافة إلى التعليم العسكري هنالك التعليم الديني ليصبحوا مسلمين قادرين على الدفاع عن العقيدة التي اعتنقوها[72]. جاءت استجابة السلطان لمطالب الامبراطور المتعلقة بالعبيد المسيحيين مبهمة ليخفي رفضه التخلي عن العبيد الذين اشتراهم فطلب "**أن من حضر من التجار: من سوداق وغيرها بمماليك وجوار تمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطاني ولا تمنعهم**"[73].

خلال عهد أسرة باليولوجس (660-885هـ/1260-1453م)، أصر الأباطرة البيزنطيين على مسألة معاملة الرعايا المسيحيين الموجودين في الدولة المملوكية. لكن ردود سلاطين المماليك الإيجابية في معظمها، إن لم تكن كلها، لا يمكن أن تضمن ردود الفعل للسكان المسلمين. فالموقف الشعبي وموقف السلطة لا يتطابقان، فعلى سبيل المثال وفي بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي قام العامة بالهجوم على بيوت الذميين وسلبها، كما قاموا بتخريب الكنائس، فقامت السلطة المملوكية بالقبض على كل خرب وشارك في أعمال الشغب[74].

تحتوي معاهدة عام 680هـ/1281م على اقتراح للمساعدة البحرية من بيزنطة إلى السلطنة المملوكية، رفضها السلطان قلاوون ربما بسبب عدم ثقته بالإمبراطور البيزنطي أو خشية من ردود الفعل المحلية. مصر هي موطن الخلافة العباسية منذ عام 660هـ/1261م، وهي السلطة الأعلى في العالم الإسلامي. فلا يسمح للسلطان اللجوء إلى مساعدة دولة مسيحية. هذا الاقتراح يؤكد أن بيزنطة لديها إمكانات بحرية تسمح لها بالدفاع عن نفسها، واستعدادها لتقديم هذه الخدمة لأصدقائها في حال رغبوا في ذلك[75]. تبدو العلاقة بين الدولة المملوكية والبيزنطية الباليولوجسية هي الوحيدة من

---

[71] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 205، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 230، القلقشندي، صبح، ج14، ص 74، CANARD, Un traite, p.201, CANARD, Le traite de 1281, p. 675.**

[72] **MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 130.**

[73] **ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص 209، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج7، ص 233، القلقشندي، صبح، ج14، ص 78، CANARD, Un traite, p.202, CANARD, Le traite de 1281, p. 680.**

[74] **قاسم (عبده قاسم)، أهل الذمة في مصر من الفتح حتى نهاية المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003، ص 119.**

[75] **HASSAN, Les relations diplomatiques, p. 115.**

نوعها بين قوتين تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين ومتناقضتين: مصر وبيزنطة. هذه المعاهدة بين البلدين هي الوحيدة من نوعها في المصادر العربية الإسلامية.

خلال قرن ونصف على الأقل، ومنذ ظهور ميخائيل الثامن حتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عملت بيزنطة ومصر لبناء وتعزيز علاقاتهم. كان للدولتين أهداف لتتحقق: بالنسبة لمصر هناك سببان رئيسيان وراء هذا التوجه. الأول يفرضه التاريخ، والثاني تمليه ضرورات العصر. فبيزنطة هي الطريق الوحيد الخطير الذي يمكن "للكفار" أن يتبعوه ولقد أثبت التاريخ هذا الاحتمال عندما اتبع الفرنجة في حملاتهم المختلفة ضد الشرق الإسلامي طريقاً يمر بالأراضي البيزنطية. والهدف واضح إما تقليص حدود العالم الإسلامي أو إخضاعه للسيطرة الغربية[76]. والتحالف مع بيزنطة يساعد على عرقلة الهجمات المحتملة عن طريق البر. المماليك بموجب المعاهدة التي أبرموها مع البيزنطيين يأملون بقلب دور هؤلاء في الصراع الإسلامي المسيحي، ونجحوا بفضل مساعدة الغرب الأوروبي الذي ساعد في تعميق هذه العلاقة عندما أعلن الحرب على الأرثوذكسية التي تعتنقها بيزنطة.

منذ ظهور الإسلام واندفاعه نحو العالم المسيحي، تعد بيزنطة قاعدة متقدمة له، ويتمثل دورها في الدفاع عن المسيحية وصد أعداء الإيمان قدر الإمكان. وبسبب موقعها، كان لديها دور بارز على الصعيد الثقافي كما على الصعيد العسكري، فكان عليها الحفاظ على مجال المسيحية إن لم يكن توسيعه بالوسائل الثقافية، عن طريق محاربة الدين الجديد (الإسلام)، وبالوسائل العسكرية بصد المسلمين، أو على الأقل محاولة حصرهم في المكان الذي كانوا فيه[77].

انعكس هذا الوضع مع المماليك. في الواقع، منذ منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى سقوط القسطنطينية، بيزنطة، من جهة صراعها مع البابوية والغرب، ومن جهة أخرى علاقاتها جيدة إلى حد ما مع مصر، أصبحت صمام الأمان بالنسبة إلى المشرق العربي الإسلامي. استغل المماليك الفرصة لتشديد قبضتهم على الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، أولا بالوسائل الدبلوماسية، ثم بالوسائل العسكرية[78].

وهكذا أصبحت بيزنطة المدافعة عن المسيحية، في خدمة أعدائها التقليديين إذ سمحت للمماليك بتجنيد الرقيق وبشكل دائم. إضافة إلى ذلك حكم المماليك على دور ومكانة بيزنطة من خلال علاقاتهم مع القبيلة الذهبية[79]. جغرافياً تقع بيزنطة بين مصر والقبيلة الذهبية فهي الممر البحري الوحيد الذي يربط البحر المتوسط بالبحر الأسود. توفر هذه المنطقة لمصر الرقيق الذين تحتاج إليهم بأعداد كبيرة، والنقل البحري هو الوحيد القادر على نقلهم وإيصالهم[80].استغلت مصر العلاقات الخلافية بين بيزنطة والغرب الأوربي بإدراج مصالحها في هذا الصراع من خلال التأكيد لبيزنطة على ضمان معين للسلام والتبادل في المجال التجاري[81].

---

[76] MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 131.

[77] MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 132.

[78] تمت تصفية الغالبية العظمى من الإمارات الفرنجية في بلاد الشام في عهد السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون. للمزيد انظر طقوش (محمد سهيل)، تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، بيروت، 1997، ص 116- 129، 180-190.

[79] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص 54.

[80] كان استيراد الرقيق من منطقة جنوب روسيا ومنطقة القرم، يشكل دعامة النظام المملوكي في مصر، بل القوى الرئيسية التي اعتمد عليها المماليك في الحرب والسلم، وكان الجيش المملوكي في حاجة ماسة إلى تدفق مستمر من المجندين نتيجة للحروب المستمرة مع المغول والفرنجة، هذا فضلاً عن الثورات الداخلية، ومن ثم كان الرقيق يساهم في تجديد شباب الجيش المملوكي وحيويته. للمزيد انظر ASHTOR, E., *Les métaux précieux et la balance des payements du Proche-Orient à la basse époque*, S.E.V.P.E.N., Paris, 1971, p. 696-697.

[81] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 105.

لكن ما الاستفادة التي تتوقعها بيزنطة من علاقتها مع مصر؟ أولا سهلت بيزنطة مهمة السفراء ذهاباً وإياباً بين مصر وحلفائها من مغول القبيلة الذهبية. لقد ترافقت العديد من سفارات البلدين التي عبرت أراضيها، بسفارات بيزنطية محملة بالهدايا لكلا الحاكمين، وبرسائل للحصول على بعض الفوائد. هذه الظاهرة المتمثلة بمرافقة السفارات أصبحت شبه عادة بعد سوء الفهم بين مصر وبيزنطة، عندما قامت الأخيرة بإعاقة سفراء المماليك المتوجهين إلى خان القبيلة الذهبية في عام 662هـ/1263م. ورداً على ذلك أرسل السلطان بيبرس رسالة شديدة اللهجة ومليئة بالتهديد والوعيد للإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن[82]. يعكس هذا الموقف للسلطان بيبرس حول العلاقة بين بيزنطة والقبيلة الذهبية، الأسباب التي دفعت البيزنطيين إلى تعزيز علاقاتهم مع المماليك. فمغول القبيلة الذهبية حاولوا أكثر من مرة القيام بغارات عسكرية لإضعاف القوى البيزنطية حتى إنهم تمكنوا من وضعهم تحت حمايتهم لفترة من الزمن واضطروهم إلى دفع ضريبة سنوية[83]. وبما أن العلاقات بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية جيدة حاول الامبراطور الاستفادة من هذا، وخاصة عندما قامت القوات المغولية بالتوغل في أراضي الدولة البيزنطية ولم يتوقف الهجوم إلا بعد تدخل السلطان بيبرس بين الفريقين المتنازعين، عن طريق سفيره الموجود بالقسطنطينية فارس الدين أقوش المسعودي. والنتيجة كانت انسحاب القوات المغولية وإعادة توطيد السلام في المنطقة[84]. منذ هذا الاتصال، وعلى الرغم من برودة العلاقات بين الطرفين في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين/ القرن الرابع والخامس عشر الميلاديين[85]، لم تواجه بيزنطة حوادث مماثلة، وانتهزت الفرصة للتحول إلى مشاكل أخرى التي تقدم هي أيضاً تفسيراً لهذه العلاقات. كان أخطر هذه المشاكل الصراع الديني بين البيزنطيين والغرب الأوربي. في نظر الغرب، إن الحفاظ على العلاقات الجيدة بين بيزنطة والمماليك لا يعزز الانقسام الديني فحسب، بل يعطي الانطباع بوجود جبهة موسعة، لذا في حال وجود حملة فرنجية، يجب توجيهها ضد بيزنطة ومصر ومغول القبيلة الذهبية في الوقت نفسه. وقد تأكد هذا الأمر بالفعل من خلال أمرين: التحالف المغولي (مغول فارس)–الغربي ضد المماليك، وتعزيز فكرة ضرورة غزو القسطنطينية للوصول إلى الأراضي المقدسة عند الغرب الأوربي[86]. لكن هذا المشروع لم يتحقق رغم وجوده، لأن البيزنطيين لم يدخلوا في تحالف مع المماليك بل بسلام وصداقة، بالإضافة إلى فتور وتراجع فكرة الحرب المقدسة[87].

في مثل هذا الإطار، استغل الأباطرة الفرصة للوصول إلى الأقليات المسيحية، وخاصة الملكانيين، الذين يعيشون تحت حكم المماليك. في كل مرة يأتي سفراءهم إلى القاهرة، محملين بالهدايا للسلاطين بهدف تحسين أوضاع رعايا الدولة المملوكية من المسيحيين. الرسالة التي بعث بها مانويل الثاني إلى السلطان فرج تعبر عن هذه العلاقة المباشرة بين الهدايا ووضع المسيحيين "**ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي، فجهزنا لكم صحبة المذكور (السفير) خمس كواهي وبازدار، ليكون نظركم الشريف عليهم، وكذلك البطاركة والنصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان**

[82] MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 133.

[83] RICHARD, J., *La papauté et les missions d'Orient au Moye Âge (XIII^e-XV^e)*, Ecole française de Rome, Rome, 1977, p. 289, ATIYA, The Crusades, p. 233-234.

[84] توراو (بيتر)، الظاهر بيبرس، تر: محمد جديد، قدمس للنشر والتوزيع، 2002، ص 129.

[85] يمكن ملاحظة انخفاض التبادل الدبلوماسي بين الطرفين ابتداءً من النصف الثاني من الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، لا تذكر المصادر سوى سفارتين أرسلهما الامبراطور جون الخامس إلى الأشرف شعبان عامي 770هـ/1368م و777هـ/1375م. المقريزي، السلوك، ج3 ق1، ص 169، 254، ابن حجر العسقلاني، إنباء، ج1، ص 106.

[86] RICHARD, J., La papauté et les missions d'Orient, p. 289, ATIYA, The Crusades, p. 233-234.

[87] MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 133-134.

ومحبته، والوصية بهم، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جاري عوائدهم من غير تشويش"[88]. تجني بيزنطة ربحاً كبيراً من هذه المبادرات، فهي تمنح لنفسها مكانة بارزة بين مسيحي مصر، وتظهر نفسها كحامية للطوائف المسيحية التي تعيش خارج العالم المسيحي، وخاصة في الشرق العربي الإسلامي.

لقد تمتعت بيزنطة بمعاملة خاصة من قبل المؤرخين العرب في العصر المملوكي، إذ لم يقدموا لها صورة قاتمة أو باهتة كما في المصادر البيزنطية[89]. إن مصطلح كافر لم يستخدم للدلالة على البيزنطيين، والحالة الوحيدة التي استخدم فيها كانت عندما اتهم السلطان بيبرس الامبراطور ميخائيل الثامن بالحنث في يمينه وخرقه للمعاهدة القائمة بينهما، ودعا البطاركة والقساوسة إلى حرمانه[90]. أيضا عند إعادة فتح مسجد القسطنطينية" **فرح السلطان....وجعل شعار الإسلام يقام في بلاد الكفر**"[91]. وقد استخدم مصطلح الكافر أيضاً عند عودة أبناء الظاهر بيبرس من المنفى في القسطنطينية "**تركوا ظلمات البلاد الرومية إلى نور البلاد الإسلامية**"[92]. لقد عرف المسلمون عن الروم البيزنطيون منذ بداية القرن السابع الميلادي شعورهم "بالتعالي والتفوق، ولكن ليس الخبث المتعمد"[93]. المؤرخ النويري، على سبيل المثال، من خلال دراسته لخصائص الشعوب يعطي أحكام أو صفات أخلاقية لمعاصريه تؤكد هذه الفكرة عن التفوق. بالنسبة إلى البيزنطيين، منحهم النويري صفة "**النجابة**" و"**الكبر**"(التعالي)[94]. وأضاف أن " **أربع لا تعرف في أربعة: السخاء في الروم، والوفاء في الترك، والشجاعة في القبط، والغم في الزنج**"[95].

وهكذا يمكن القول إنه على الرغم من الاختلافات الدينية بين الطرفين، لم يشكوا المؤرخون المسلمون من البيزنطيين ولم يحتفظوا لهم بانتقادات، البيزنطيون ليسوا جزءاً من العدو الكافر، كانت علاقاتهم مع مصر جيدة وعاملوا المسلمين بكل احترام وسخاء على المستويات كافة[96]. فالمسلمون الذين يعيشون في بيزنطة، لديهم مسجد يمارسون فيه شعائرهم بحرية. هذا المسجد كان الإمبراطور ميخائيل الثامن قد منحه إلى السلطان المملوكي بيبرس منذ استعادته للقسطنطينية[97].

الخاتمة

يتضح مما سبق إن الإمبراطورية البيزنطية اتجهت إلى إيجاد نوع من التوازن في منطقة حوض المتوسط وخاصة بعد محاولات الغرب الأوربي استعادة القسطنطينية باتصالات سياسية مع سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشام التي كانت من القوى الكبرى في منطقة المشرق العربي الإسلامي، إذ سيطرت على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب، وكانت

---

[88] القلقشندي، صبح، ج8، ص 122، LAMMENS, Correspondances, p. 361

[89] MANSOURI, Recherches sur les relations, p. 135.

[90] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 202.

[91] ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص 129، النويري، نهاية الأرب، ج 30، ص 120.

[92] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 276.

[93] CANARD, Byzance et les Arabes, Studi Orientalistici, tom. 1, 52, 1956, p. 118.

[94] النويري، نهاية الأرب، ج1، ص 273.

[95] النويري، نهاية الأرب، ج1، ص 274.

[96] IBN FADL ALLAH al-UMARI , *Masalik al-'Absar fi Mamalik al-'Amsar : L'Égypte, le Higaz et le Yémen*, éd. Ayman Fu'ad Sayid, Institut français d'archéologie orientale du Caire, Le Caire, 1985, p. 208.

[97] توراو، الظاهر بيبرس، ص 124.

صاحبة الدور الرئيس في صد هجمات الفرنجة على المشرق. حرص سلاطين المماليك بالمقابل على تأمين سياسة خارجية بمعاهدات واتفاقيات يضمنون بها تقوية جبهتهم من جهة، واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومهم (الفرنجة والمغول) من ناحية أخرى، فتقاربت المصالح مع الإمبراطورية البيزنطية.

لقد اتسمت العلاقات المملوكية–البيزنطية بالطابع السياسي الدبلوماسي، فتبادل الطرفان السفراء والمراسلات وعقدوا الاتفاقيات. ومن خلال هذه العلاقة حصلت بيزنطة على بعض الامتيازات كتسهيل طريق الحج إلى الأراضي المقدسة في بيت المقدس، وحماية الحجاج وتوفير الأمن والأمان لهم، وإطلاق سراح الأسرى البيزنطيين، وحماية المسيحيين المقيمين في مصر والشام، وخاصة الطائفة الملكانية، وفتح كنائسهم المغلقة وممارسة شعائرهم الدينية. حصل المماليك بدورهم على ضمان عدم مساعدة بيزنطة للفرنجة في شن هجماتهم على السواحل المملوكية في مصر والشام، وضمان عدم عرقلة تجار وتجارة المماليك، والحيلولة دون وصول السفراء والمواد الاستراتيجية الهامة مثل الرقيق إلى مصر وهي المادة الأساسية لبناء القوة العسكرية للمماليك لمواجهة الاخطار المحدقة بهم.

References

AMITAI-PREISS, R., *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid war, 1260-1281*, Cambridge Studies in Islamic Civilization, 1995.

ASHTOR, E., *Les métaux précieux et la balance des payements du Proche-Orient à la basse époque*, S.E.V.P.E.N., Paris, 1971, 125 pp.

ATIYA, A. S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

ATIYA, A. S., The Crusades, in later Middle-age, London, 1938.

BAYBARs al-MANSOURI, *Zubdat al-Fikra fi Tarih al-Higra 650-707*, éd. Donald Sidney Richards, al-Ma‘had al-’Almani lil-Abhat al-Sarqiya et al-Kitab al-Arabi fi Berlin, Beyrouth, 1998, 488 pp.

CANARD, Byzance et les Arabes, Studi Orientalistici, tom. 1, 52, 1956, p. 118.

CANARD, M., « Le traité de 1281 entre Michel VIII Paléologue et le sultan Qalawun », *Byzantion*, vol. 10, 1935, p. 669-680.

CANARD, M., « Les relations diplomatiques entre Byzance et l'Égypte dans le Subh al-A‘sha de Qalqashandî », *Atti del XIX Congresso Internazionale degli Orientalisti*, Tipografia des Senato, Rome, 1935, p. 579-580.

CANARD, M., « Un traité entre Byzance et l'Égypte au XIII^{e} siècle et les relations diplomatiques de Michel VIII Paléologue avec les sultans mamluks Baibars et Qalâ´ûn », *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1935-1945, p. 197-224.

CANARD, M., « Une lettre du Sultan Malik Nâsir Hasan à Jean VI Cantacuzène (750/1349) », *Extrait des Annales de l'Institut des études orientales d'Alger*, vol. 3, Larose, Paris, 1937, p. 27-52.

HASSAN, G., Les relations ddiplomatiques entre les Mamelouks bahrides et les Etats chretiens en Orient (milieu au XIIIe-fin du XIVe siècle), These de doctorat, Universite Paris 1- Pantheon-Sorbonne, Paris, 2010.

IBN ABD al-ZAHIR, *al-Rawd al-Zahir fi Sirat al-Malik al-Zahir*, éd. ‘Abd al-‘Aziz al-Hwaiytr, Riad, 1976, 519 pp.

IBN ABD al-ZAHIR, *Tasrif al-Ayyam wa al-‘Usur fi Sirat al-Malik al-Mansur*, éd. Murad Kamil, Wizarat al-Taqafa wa al-Irsad al-Qawmi, Le Caire, 1961, 329 pp.

IBN al-FURAT, *Tarih al-Duwal wa al-Muluk*, éd. Qustantin Zurayq et Najla ‘Iz al-Din, American University of Beirut Press, vol. 7-9, Beyrouth, 1936-1942.
IBN FADL ALLAH al-UMARI , *Masalik al-’Absar fi Mamalik al-’Amsar : L'Égypte, le Higaz et le Yémen*, éd. Ayman Fu’ad Sayid, Institut français d'archéologie orientale du Caire, Le Caire, 1985, 203 pp.
IBN HAJER al-ASQALANI, *Inba al-Gumr bi-Anba al-Umr fi al-Tarih*, éd. Muhammad ‘Abd al-Muid Han, vol. 1-2, Matba‘at Maglis Da’irat al-Ma‘arif al-‘Utmaniya, Hyderabad, Inde, 1967-1968.
IBN SHADAD, *Tarih al-Malik al-Zahir*, éd. Ahmad Hutaiyt, Franz Steiner Verlag, Wiesbaden, 1983, 447 pp.
IZEDDIN, M., "Un prisonnier arabe a Byzance au IXe siècle: Harun bin Yagya", REI, 1947, p. 41-62.
LAMMENS, H., « Correspondances diplomatiques entre les sultans mamlouks d'Égypte et les puissances chrétiennes », *Revue de l'Orient chrétien*, vol. 9, 1904, p. 151-187, 359-392.
MANSOURI, M. T., *Recherche sur les relations entre Byzance et l’Egypte (1259-1453) d’après les sources arabes*, Faculté des lettres de la Manouba, vol. 1, Tunisie, 1992, 305 pp.
AL-MAQRIZI, *al-Suluk li Marifat Duwal al-Muluk*, trad. partielle en fr. Etienne Quatremère, *Histoire des Sultans mamluks de l’Egypte (1250-1308)*, Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland, 2 vols., Pairs, 1837-1845.
AL-MAQRIZI, Taqi al-Din Ahmad ibn ‘Ali (1364-1442), *al-Suluk li Ma‘rifat Duwal al-Muluk*, éd. Muhammad Mustafa Ziyada, Matba‘at Lignat al-T’alif wa al-Nasr wa al-Targama, vol. 1-2, Le Caire, 1934-1958.
AL-MUFADAL, *al-Nahj al-Sadid wa al-Dur al-Farid fi ma bada Tarih Ibn al-Amid*, trad. et éd. E. Blochet, *Histoire des sultans mamlouks*, vol. 14/3 20/1 et 12/3, dans *Patrologia Orientalis*, Imprimeurs-Editeurs, Paris, 1919-1929-1983.
NICOL, D.M., The last centuries of Byzantium, 1261-1453, Hart-Davis, London, 1972.
AL-NUWAYRI, *Nihayat al-Arab fi Funun al-’Adab*, vol., vol.30, éd.Mohammad ‘Abd al-Hadi Sa’ira, vol. 31, éd. Al-Baz al-‘Arini, vol. 32-33, al-Hai’a al-Misriya al-‘Ama lil-Kitab Le Caire, 1990-1997.
AL-QALQASHANDI, *Subh al-Asa fi Sinaat al-Insa*, 14 vols., al-Matba`a al-’Amiriya, Le Caire 1913-1919.
QASIM, A.Q., Dhimmis in Egypt from conquest to the end of the Mamluks, Cairo, 2003.
RICHARD, J., *La papauté et les missions d’Orient au Moye Âge (XIII^{e}-XV^{e})*, Ecole française de Rome, Rome, 1977, 325 pp.
SABI, *Rusum dar al-Hilafa*(le protocole du califat Abbasside), ed. M. Awad, Bagdad, 1964.
TAKOUSH, M. S., Histoire des Mamlouks en Egypte et en Syrie 1517-1250/923-648, Dar al-Nafais, Bayrouth, 1997.
THORAU, P., *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century*, tr. de l’allemand par P. M. Holt, London, 1992.